أُخوَّةُ المؤمن وخُلَّةُ الله

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٢٠م

وقف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه – كما في الحديث الصحيح المتفق عليه الذي أخرجه البخاري وسلم – فقال: (**أيها الناس! إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، وَلَوْ كُنْتُ مُتّخِذًا مِنْ أُمّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ..**).

وكانت تلك الخطبة المختصرة جامعةً ومعبِّرةً ومنبِّهةً إلى أعظم عنصرين يمكن للإنسان أن يملكهما ليكون مظهرًا صادقًا حقيقيًّا لهذا الدين العظيم، فالإنسان في هذه الأمة الإسلامية إذا أراد كمال دينه، وإذا أراد نهضة أمته، وإذا أراد رُقيَّ حضارته... فإنه يحتاج إلى هذين العنصرين المذكورين:

١ – خُلَّةُ الله.

٢ – أُخوَّةُ الإسلام ومودَّتُه.

وربما يتساءل سائل: أليست المودة أعلى درجات المحبة؟ فالودُّ هو من أكبر درجات الميل والحبّ، أتكون الخلّة أعظم من المودة، وأعظم من المحبة؟

وحينما أخبر الله سبحانه وتعالى عن علاقة الرجل بالمرأة في نطاق الأسرة قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٠] لكن كيف نستطيع فهم الفارق بين المودَّة والأُخوَّة من جهة، والخلَّة من جهة أخرى؟ وكيف يمكن للإنسان أن يملك هذين الأمرين معًا؟

– **أما الأُخوَّة مع المودَّة:** فإنها تنتج عن تكاملٍ متجانس في الأوصاف، واشتراكٍ شعوريٍّ في الهدف والمقصد والتوجه.

المودَّةُ لا تلغي هويتك، ولا تلغي وصفك، لكنها تجعل من وصفك عنصرًا متكاملاً مع وصف أخيك، وبذلك التكامل المتداخل المنسجم المتناغم الذي يتوجه إلى وجهة واحدة، ويتعلق بمقصود واحد... تتحقق رابطةٌ تضمن تعاونًا، وتحقق قوة، وتنفي تنافرًا وتباغضًا وتحاسدًا...

– **وأما الخلّة فإنها شيء آخر:** فالخلّة تبديل أوصاف، وإلغاء أوصاف، وما سمِّي الخَلُّ خلاًّ إلا حينما تبدَّل وصفُ الشراب النجِس تبدلاً كليًّا، فصار شرابًا طاهرًا.

الخلّة فناء وصف في وصف، وإلغاء إرادة في إرادة، واستسلام في خليل.

ولا يمكن لمخلوقٍ أن يكون مستحقًّا ليكون بديلاً عن مخلوق آخر، ولا يُقبل في حالٍ من الأحوال أن تُلغى هوية في هوية، أو أن يكون مخلوقٌ ما بديلاً بالكلية ويُلغي وصفَ الآخر لتكون أوصافه أوصاف بديله. تلك هي الخلّة.

- الخلّة:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فإذا أراد ربُّك، فلا مكان لإرادتك: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص: ٢٨].

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأن حكمَ رسول الله هو عينُ حكم الله، فلا يوجد حكمان، ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال الله سبحانه وتعالى في حق خليلَيه إبراهيم وإسماعيل: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ [الصافات: ١٠٣].

وقال خليلُه: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا)، فحين تسلم وصفك وإرادتك وعلمك وحولك وقوَّتك... ليكون كلُّ ذلك بأمره وعلمه وإرادته وتوجيهه وأحكامه، حينها تستحقُّ أن تكون لك هذه الخلة.

وقال الله سبحانه وهو يصف من اتخذ من المخلوقين خليلاً: ﴿ الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموطن يجعلنا نجزم أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلا الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الذين خافوا واتقوا أن يكون لهم في المخلوقات خليل، فكان ربهم خليلهم.

﴿ الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ ﴾ فظهر لهم يوم القيامة أنه لا يستحقُّ أن يعبد، ولا يستحق أن يسلَّم كلَّ شيء، أما الذي يستحقُّ أن يسلَّمَ كلَّ شيء فهو الله.

وقد وصف أمير شعراء مصر شوقي رحمة الله عليه معشوقه فقال:

كَلِفٌ بغزالٍ ذي هَيَفٍ ... خَوفُ الواشين يشرِّدهُ
صَنَمٌ للفتنةِ مُنتصِبٌ ... أهواهُ ولا أتعبَّدُهُ

لأنني مهما فُتنت به، ومهما تعلقت به، أجده لا يستحق العبودية.

وقال أستاذنا الشاغوري رحمة الله عليه - يفاخر شوقي في هذا المعنى لأنه أَحَبَّ وعبَدَ في وقت واحد، أما أمير الشعراء فإنه أحب و لم يعبد -:

إن قال سواي: أحبُّ ولا ... فأنا أهواه وأعبدهُ
إنْ عشقي مالَ إلى مَلَلٍ ... خمسًا في اليوم أُجَدِّدُهُ

أسجد لخليلي.. أسجد لسيدي.. أسجد لمن اتخذته خليلاً.. أسجد لمن لا أسمح أن يُبدَّل وصفي إلا له وحده: **"إذا أراد أن يصلك، ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته"**.

وجاء في الحديث: **(تخلقوا بأخلاق الرحمن)** أي استروا لؤمكم بحلمه، واستروا بُخلَكم بكرمه، واستروا عجزكم بقدرته، واعترفوا أنكم لا تملكون من الأمر شيئًا، وحين تختارون أن يكون الله سيدكم وحده، فإنكم تحسنون الاختيار.

وقال تعالى في هذا المعنى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥].

رحم الله الروميَّ جلالَ الدين كان يقول: **"إن كل شيء ما خلا رؤية وجهه – حتى لو كان مُلكَ الأرض – خيالٌ وخرافة". فإلى متى يعانق الحمقى معشوقًا ميتًا؟!. والذي عشقه ودينه خدعة ورياء، عليه أن ينام..**

هل السّكّر أحلى أم ذلك الذي يصنع السكر؟ هل القمر أجمل أم ذلك الذي يصنع القمر؟

الطفل لا يعرف شيئًا سوى اللبن، والعاشق لا يعرف سوى معشوقه.

عيسى عليه السلام ثمل بالحق، وحماره ثمل بالشعير.

عيسى ابن مريم مضى إلى السماء، وحماره بقي في الأسفل، وأنا بقيت على الأرض، وقلبي صار في الأفق الأعلى.

فالعنصر الأول (الذي هو الخلة) يجعلك تنطلق في وجهتك على الصراط المستقيم لا تتلفت، ويجعلك حرًّا عن العلائق، مغرياتٍ كانت أو مخوِّفات، لأنك تطلب إحدى الحسنيين، ولأنك تطلب رضاه، وتقف كما وقف خبيب في مقام الخلّة لتقول بين أعداء الله:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أيِّ جنب كان في الله مضجعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلوٍ ممزَّعِ

تقف في مقام الخلة كما وقف سَحَرَةُ فرعون يوم أن هددهم أنه سيقطع أيديهم وأرجلهم، وسيصلبهم في جذوع النخل، فوقفوا أمام ذلك التهديد يقولون له: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

فأنت تملك أن تنفذ أحكامك الدنيوية هذه، ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

هو الذي كان يقول: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

فأجابه السحرة من مقام الخلة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

مقام الخلة يجعل منك حرًّا عن العلائق الثمانية، فأنت مع هذه الثمانية بظاهرك، لكن وجهة قلبك إلى الله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]

أما الوصف الثاني الذي يجعل بين المسلمين ترابطًا شعوريًّا، ووحدةً في الشعور، وتماسكًا.. فهو:

– **أُخوَّة الإسلام ومودَّته:** إنها وجهة واحدة، فهم يريدون رضاء الله، ويريدون وجه الله.

إذا كنت تريد الدنيا وأخوك يريد الله، فلن تشعر بالمودة والأُخوّة، لأن الذي يجمعك إلى أخيك في رابطة شعورية متماسكة إنما هو وحدة الشعور ووحدة المقصود، فإذا تباينت المقاصد اختلفتما، وإذا كانت المادة والدنيا جامعةً لكما، فستفترقان وتختلفان، إلا أن يكون أحدكما خليلاً لصاحبه، فإذا كان خليلاً لصاحبه فإن أحدهما سيُلغي الآخر.

إنها إذًا علاقة تقوم على تكامل وتقدير ومودة واحترام وتماسك..

إنها توجُّهٌ واحد واشتراك في الشعور.

تمسَّـــك إن ظفـــرت بـــذيل حُـــرٍّ فـــإنَّ الحُـــرَّ في الـــدنيا قليـــلُ

الحُرُّ حرٌّ بقلبه من هذه العلائق، فإن كنت حُرًّا ستجد أن هذه المودَّةَ والأُخوّة قويةٌ بينكما.

قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] فأُخوّة الإسلام ومودته تحوِّل الإنسان من "أنا" إلى "نحن".

وقال الله لحبيبه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

كنتَ معهم وكانوا معك في التوجُّه الواحد، فكان التأييد.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ والتأليفُ الجمعُ على المقصود الواحد الذي هو التوجُّه إلى الله، والدعوة إلى الرشاد وفعل الخير، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فالمادة لا تُؤلِّف بين القلوب، بل تُفرِّق بين الأقران، والمادة ما كانت يومًا تجمع إلا جمعًا مؤقتًا كما تجتمع الكلاب على الجيفة، فإذا انتهت الجيفة تفرَّقَ كُلٌّ يبحث عن جيفة أخرى.

المادة لا تجمع: **"ما كان لله فهو المُتَّصِل، وما كان لغيره فهو المُنفصِل"**.

وقال صلى الله عليه وسلم لعليٍّ كما يروي النسائي في سننه: **(إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ أَنَّهُ لا يُحِبُّكَ إِلا مُؤْمِنٌ، وَلا يَبْغُضُكَ إِلا مُنَافِقٌ)**، فكانت شهادةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا عليّ بالإيمان.

فإذا صادف أنِ اجتمع بالمؤمن مؤمنٌ، أَحَبَّه، لأنه اشتراكٌ في وصف، واشتراكٌ في معنى، وهذا لا يعني التماثل في الوصف، بل التكامل، لكنه يعني أن ذلك التكامل مُتجانس في معنى واحد.

وأكثرُ ما يُذكِّرني من دراستي الجامعية في معنى هذا التكامل الوصفيّ، ما كُنا ندرسه ونحن طلبة، حين نرى الإنزيم (Enzyme) والكوإنزيم (Co-enzyme)، فيكون التداخل، أو باللغة الدارجة العامة، الصورة التي قُطِّعت إلى قطع، وأنت تبحث عن القطعة التي تُكمِّل القطعة الأخرى، لتكون في النتيجة الصورةُ كاملةً جميلة.

هكذا تكون رابطة الأُخوّة..

هكذا تكون رابطة المودة..

هكذا يكون التناغم.. ليُشكِّلوا في النتيجة قوة واحدة، وبنيانًا مرصوصًا، وجسدًا واحدًا.

قال الجُنيد رحمة الله عليه: **"ما تآخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعِلَّة في أحدهما"**

فقال رجلٌ له: قد عزَّ الإخوان في هذا الزمان، أبحث عن أخٍ فلا أجد، أين أخٌ لي في الله؟

فقال له الإمام الجُنيد: **"إن أردت أخًا يكفيك مؤونتك، ويتحمل أذاك، فهذا لَعَمْري قليل، وإن أردت أخًا في الله تحمل أنت مؤونته، وتصبر أنت على أذاه، فعندي جماعة أُعرِّفُهم لك"**.

عندما تدخل إلى مساحة الأُخوّة بالقاعدة التي تقول: ما حقوق إخواني عليّ؟ ستكون مُستمرًّا في رابطة الأخوَّة والمودَّة، وعندما تدخل إلى مساحة الأُخوّة وأنت تقول: ما حقوقي عليهم؟ وما واجباتهم نحوي؟ فسوف تخسر هذه الدائرة عمّا قريب.

هذه هي قواعد الأخوة والمودة في الإسلام.

وهكذا يستطيع الإنسان الذي يريد كمال دينه أن يجمع باطنًا فيه الخُلّة لله تبارك وتعالى وحده، وفيه رابطة الأخوة في الإسلام.

إن نحن فهمنا الجمع بين هذين الأمرين، أرى بينكم في المستقبلِ الكبيرِ شبابًا واعدًا، وكهولاً يستطيعون صناعة حضارة، وإن لم تجتمع معًا هاتان الخصلتان، فلا أعتقد أننا نقدر على التحول من بناء الفرد إلى بناء الجماعة والمجتمع.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.